القبلة

البروفیسر الدکتور محمد مسعود احمد

حزب التحریر - لاہور، پاکستان

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

الإنسان إذا أحب أحدا يحن قلبه إليه ، وهذا هو حال من يحضر القبر الشريف للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولماذا لايكون هذا الحال ؟ فإن الله وملائكته أيضا مقبلون عليه ، وينزلون عليه الصلوات والرحمات ، ونحن أيضا أمرنا بأن نتوجه إليه ونمدحه ونثني عليه ونصلي ونسلم عليه ونؤدي حق المحبة { إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما } (الأحزاب ، آية ٥٦)

نعم ! لايحضر الحاضرون باب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلا بعد إمضاء مدة مديدة بآلاف من أماني الحضور ، فبعضهم يتململون بهذه الأماني وكثير منهم فارقوا الحياة بهذه الأماني .

لا ، لا، بل أصبحوا أحياء خالدين ، ولكن الذين حضروا باب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلاتسأل عن آثار ولههم وغرامهم وكيفية بكائهم ، ليس لها ألفاظ تعبر عن كيفية ذلك ، فهم ممسكون بقلوبهم وساكبون عبراتهم وغريقون

بأمانيهم وقائمون على بابه بأدب وتوقير .

مصراع : أدب كاهيست زير آسمان أزعرش نازك تر

هذا المقدس تحت السماء أخطر من العرش

{ يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولاتجهروا له بالقول كجهربعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون } (الحجرات ، آية ٢)

ولكن العاملين على الرقابة في مواجهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لايذرون الناس ليضعوا أيديهم تحت صدورهم بأدب وتبجيل ن وعندما يرفعون أيديهم للدعاء لايسمحون بذلك ويوجهونهم إلى القبلة .

الله، الله ! بأي أماني يحضر الحاضرون ؟ وبأي آمال يقدم القادمون ؟ فنحن مستغربون لأي شيئ نصرف وجوهنا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ فالله قدوجهنا إليه والله وملائكته متوجهون إليه ، فمن توجه إليه توجه إلى الله ومن انصرف عنه انصرف عن الله ، فلعلهم لايعرفون سر المحبة ولقد كان المفروض عليهم أن يعرفوا ذلك .

ولاريب أن أفضل معروف أن نقول للإخوة قولا حسنا .

ويزخر القرآن والأحاديث الشريفة بأقوال حسنة ، فتعالوا نفتح القرآن ونراجع إلى الأحاديث ونشاهد نحن ونُر إخواننا ذلك فلعل القول الحسن يؤثر فيهم ويفهمون ، ولعل نكتة تقع في القلوب وتتم أماني الواهين ولعل هدايا العبرات تنال القبول عند الملك المجيب .

O

معنى القبلة : " ما يتوجه إليه " . ففي الصلاة نتوجه إلى بيت الله العتيق ، فسميت القبلة ، ولكل أمة قبلة وقد جاء ذكره في القرآن الحكيم :{ ولكل وجهة هو موليها } (البقرة ، آية ١٤٨)

وليس الإتجاه لوجهة خاليا من الهدف ، بل له أهداف ومنها أن تقوم وحدة الدين ويقوى شمل الأمة وتظهر الأمة كلها متجهة لجهة واحدة .

لذلك حينما ضيق فرعون على بني إسرائيل الحياة ولم يبق لهم مجال لإقامة الصلاة في المساجد أمروا ليقيموا الصلاة متجهين للقبلة { واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر

المؤمنين } (سورة يونس ، آية ٨٧) .

فتبين أن في تعيين وجهة لأمة أهمية نفسية وأهمية أممية ودينية وجغرافية وتاريخية وليس المقصود أن الله ليس إلا في تلك الوجهة ، وهذه العقيدة كفر ، فالقرآن يقول مكذبا ذلك :

{ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله }

(البقرة ، آية ١١٥) .

وهناك قد يخطر ببال الإنسان أن تولي وجهة خاصة والإنصراف عنها بر وحسن ، فيكذب القرآن ذلك أيضا بقوله

{ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب }

(البقرة ، آية ١٧٧) .

وإنما علاقة البر بكيفية الإيمان والقلب وليست بالظاهر ، لذلك أن من لايعرف جهة القبلة في الصحراء يتحرى القبلة ويصلي لوجهة يرضاها قلبه تصح صلاته :{ فأينما تولوا فثم وجه الله } .

O

إن بيت الله أول بيت للعبادة وأول قبلة ، كما يصرح القرآن { إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين } (سورة آل عمران ، آية ٩٦) . فبدأ الناس يضلون على مر الأيام ، فجاء الطوفان ورفع بيت الله ، وبعد مضي قرون رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام القواعد من البيت من جديد بأمر من الله ، يقول ربنا : { وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم } (البقرة ، آية ١٢٧)

وحينما كانا يرفعان القواعد يدعوان بمجئ نبينا الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم { ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم } (البقرة ، آية ١٢٩)

وإن رفع إبراهيم قواعد بيت الله وذكر نبينا الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم خلال الرفع ودعائه له كان في علم نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ، لذلك يقول النبي صلى الله

تعالى عليه وسلم : " أنا دعوة إبراهيم "
(البدايةوالنهاية ، ج ٢ ، ص ٢٧٥) .

وقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من ذرية إسماعيل عليه السلام وكان نظره صلي الله تعالى عليه وسلم المتركز إلى بيت الله ، ولما أعلن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم النبوة سنة ٦١٠م وفرضت الصلاة تقرر بيت الله قبلة للمسلمين ، وقبل إعلانه صلى الله تعالى عليه وسلم النبوة كان بيت الله هو المعبد لأهل مكة وإن كان متلطخا بالأصنام وصور الشخصيات المقدسة . وبعد تقرر القبلة كان المسلمون يسجدون ويعبدون متجهين له ، ولكن المشاهدين لم يعثروا على سر أن الساجدين متجهين لبيت الله يسجدون متجهين له على سبيل العادة القديمة أم يسجدون له يتبعون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإن الغرض المنشود ليس بيت الله بل طاعته واتباعه صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (سورة النساء ، آية ٨٠) .

ودام بيت الله قبلة مادام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة المكرمة ، وحينما هاجر إلى المدينة المنورة سنة ٦٢٢ م

تحولت القبلة وحل بيت المقدس مكانة القبلة بدل بيت الله ، واستمر لمدة سنة وخمسة أشهر على وجه التقريب . وبتحويل القبلة لقد شاهد المشاهدون استقامة المهاجرين وكمال حبهم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإنهم قد تركوا قبلتهم في آن واحد وبدون أي اعتراض وانصرفوا عن القبلة التي دامت لهم ثلاثة عشر عاما لأجل طاعة ومحبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وتحول اتجاه جميعهم من بيت الله إلى بيت المقدس ، ولكن حال المنافقين قد انكشف ، فهم انقلبوا على أعقابهم ، وكما بينا أن بيت المقدس ما دام قبلة إلى سبعة عشر شهرا ، وكان أهل المدينة مرتاحين ومبسوطين بهذا التحول ، فإن بيت المقدس كان قبلة لهم قبل الإسلام ، ولكن أنصار المدينة – الذين اعتنقوا الإسلام بعد ترك اليهودية والنصرانية – ولم يكشف حال قلوبهم في أنهم يسجدون متجهين إلى بيت المقدس في طاعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أم لأجل عادتهم القديمة وكانت رغبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وميله إلى بيت الله وذات يوم كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقلب نظره إلى السماء بأمنية أن

يكون بيت الله قبلة له ، فحقق عالم أحوال القلوب في آن واحد أمنية حبيبه صلى الله تعالى عليه وسلم وأنزل الوحي { قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره } (البقرة ، آية ١٤٤)

وكما تبينت بتحويل القبلة محبوبية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الله كذلك تبينت نوايا القلوب وافترق المؤمنون والمنافقون .

وطبيعة الإنسان أنه لايترك عادته القديمة في آن واحد ، ويكون في قلبه أشياء ، فميز الله الطيب من الخبيث من أول يوم .

لقد أقلق تحول القبلة اليهود والنصارى والمنافقين الذين لم يكونوا في طاعة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بل كانوا يسجدون إلى بيت المقدس على سبيل العادة ، فظهرت نوايا قلوبهم وبدأوا يعترضون على ذلك ، كما يبين القرآن : { سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب } (البقرة ، آية ١٤٢) يعني

إذا تقرر أن الجهات كلها لله ، فليس الإعتراض على تحول الجهة إلا الحمق والسفاهة ، ويقول أيضا : { الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنائهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون } (البقرة ، آية ١٤٦) .

ومن علامات نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم التي كانت مكتوبة في التوراة أنه يصلي للقبلتين ، كأن تحول القبلة آية من آيات نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم التي ظهرت في وقتها ، ولكن لم يتبدل بذلك تمرد أهل الكتاب وغرورهم { ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك } (البقرة ، آية ١٤٥) .

وقد علمت بذلك حكمة تحول القبلة والحكمة الثانية التي هي فرع الحكمة الأولى وهامة غاية الأهمية وهي أن الإنسان لايتحمل أن يسلب منه الشيئ الذي يكون أساسا وعلامة لدينه وشعبيته بل لكيانه وهكذا يهز كيانه .

وإنما يوجد الفساد كله في جميع العالم بهذه العاطفة الشعبية ، وفي الإنسان لايوجد استعداد لترك آثاره الشعبية ولو لترك شيئ طفيف منها ، ولكن حينما يحب أحد تهتز له الأسس كلها

وإن لم يترك محب رغباته لأجل حبيبه لم يعرف المحبة وحقها ولم يعرف الحبيب ، فإن الله تعالى يريد ان يبين بتحويل القبلة كيفية قلوب المحبين من يترك قبلته القديمة ويتخذ القبلة التي اتخذها حبيبه قبلة لـه ومن كان نظره إلى الحبيب ، ومن كان نظره إلى القبلة ، لقد أفلح من كان نظره إلى الحبيب وخاب من كان نظره إلى القبلة .

اسمعوا كيف يزاح الستار عن سر المحبة { وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه } (البقرة ، آية ١٤٣) .

يعني من يسجد إلى بيت المقدس في طاعته صلى الله تعالى عليه وسلم ومن يسجد يذره متجها إلى بيت الله .

ويقع بيت المقدس شمال المدينة المنورة وبيت الله جنوبها وإنما المنقلب على عقبيه ينقلب من الشمال إلى الجنوب – يعني أنما المنقلب من بيت المقدس والمخالف لأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتجه إلى الجنوب ولكن الله لايرضى بأن لايهتم بالمصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم

ويهتم بالقبلة فقط ، وإنما المطلوب الأصلي اتباعه وطاعته صلي الله تعالى عليه وسلم .

وإنما نحن نفكر في ما إذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمامنا نتوجه إليه صلى الله تعالى عليه وسلم أم إلى بيت الله ؟ وإذا نرفع أيدينا للدعاء نرفع إليه أم إلى بيت الله ، ولكن إذا نراجع إلى الآية المذكورة وإلى الحديث الآتي تروح هذه الوساوس والشكوك كلها في نفس الوقت .

عن ابن خزيمة بن ثابت عن عمه أبي خزيمة أنه يرى فيما يرى النائم أنه سجد على جبهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخبره ، فاضطجع له وقال : صدّق رؤياك ، فسجد على جبهته (مشكاة المصابيح ، ص ٣٨٧ ج ٢)

وإذا أثر قدم إبراهيم عليه السلام يكون مصلىً { واتخذوا من مقام إبراهيم مصلىً } (البقرة ، آية ١٢٥) فلماذا لاتكون جبهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مصلىً ؟

لقد تبين أن سيدنا أباخزيمة رضي الله تعالى عنه سجد على جبهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فظهر أن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم قبلة المحبة ، وقدجعله الله تعالى القبلة ،

اسمعوا ما يقول القرآن : { قل إن كان آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدي القوم الفاسقين } (التوبة ، آية ٢٤)

وإنما جعل القرآن من يصرف الوجه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فاسقا ، فإن صرف الوجه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يضاد المحبة والأدب وإنما تقتضي هذه الآية كمال محبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأدبه .

وأمر الملائكة كلهم أن يسجدوا لآدم عليه السلام وإنما الآمر وحده لاشريك له { وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس } (البقرة ، أية ٣٤) . فأبى الشيطان وأصبح رجيماأزليا .

وقد تكرر ذكر هذه القصة في السور الآتية :

(١) سورة الأعراف ، آية ١١) (٢) سورة الإسراء ، آية٦١) (٣) سورة الكهف ، آية ٥٠ (٤) سورة طه ، آية ١١٥ (٥) سورة الحجر ، آية ٢٩ .

وقد جاء في الآية الأخرى : { فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون } (سورة الحجر ، آية ٢٩ ، ٣٠) .

كان سيدنا آدم عليه السلام أمين نور المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد أمر الله الملائكة كلهم لأن يسجدوا تعظيما وتوقيرا ، فسجدوا كلهم أجمعون .

لأجل ذلك فقد علم الحافظ ابن القيم الزائر عند حضوره لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون متذللا وخاضعا : وما أحسن ما قال :

فيقوم دون القبر وقفة خاضع متذلل في السر والإعلان
فكأنه في القبر حي ناطق والواقفون نواكس الأذقان

(شفاء الفؤاد ، ص ١٨٣)

المسلم يسأل أي واحد ولكنه لا يخضع إلا لله ، ولكن الحافظ ابن القيم يقول : يجب على من يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم يأتي خاضعا متذللا ، فإن من تذلل وخضع للنبي صلى الله عليه وسلم خضع لله ، فإن سجود الملائكة لآدم كان سجودا لله ، وإبليس لم يدرك هذا سر المحبة وأصبح رجيما

مؤبدا ، فإنه لم يرفض السجود لله بل إنه رفض تعظيم وتوقير حبيب الله ، فإن هذه النكتة يجب أن تكون في الأذهان .

ولم يذكر الله هذه القصة العظيمة في القرآن على سبيل الحكاية فقط بل يريد أن يمنحنا هذا الدرس إن كنتم تحبون الله فاخضعوا لحبيب الله ولا تعدلوا عنه في أي حال .

فإن الله قد جعل بيت الله مركز اتجاه المسلمين ولكنه جعل نبينا صلى الله عليه وسلم حبيبه وجعله مركزا لاتجاه الملائكة والمؤمنين أجمعين . { إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما }. (الأحزاب ، آية ٥٦)

وإن المركز الذي ليس مركزا للمؤمنين فحسب بل هو مركز الله وملائكته هو الأفضل ، فإننا لا نتجه في الصلاة إلى بيت الله إلا أن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم قد اتجه إليه وإنما السنة لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم هذه وإنما نحن عندما نتوجه إلى بيت الله نعمل بسنة نبينا الأكرم صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإن الله لا يرضى بأن أحدا يقوم صارفا وجهه

عنه ، وإنما اشترط المحبة بأن يكون الإتجاه إلى الحبيب .

{ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفرلكم ذنوبكم والله غفور رحيم } (آل عمران ، آية ٣١) .

فأنا الذي قد علمتكم توجيه وجوهكم إلى الله ، وقد علمتكم سر التوحيد ، فأين تذهبون تذرونني ؟

قد أصبح نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم محافظاً في ساعة صعبة على النبي يوسف عليه السلام ، { لقد همت به وهم بها لو لا أن رأى برهان ربه } (يوسف ، آية ٢٤) .

ومن هو برهان الرب ؟ وإنما النبي صلى الله عليه وسلم هو البرهان .

{ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم } (النساء ، آية ١٧٤) .

وكان يوسف عليه السلام انعكاس جمال المصطفى الذي سجد له إخوته .

{ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً } (يوسف ، آية ١٠٠) .

فتفكروا في أن يسجد لإنعكاس الشمس ولا يتوجه في الدعاء

إلى شمس النبوة ويتعين هذا التوجه إثما ؟

وإنما هي مكانة النبي صلى الله عليه وسلم إذا نادى أحداً وهو يصلي عليه أن يحضر له أثناء الصلاة ولا يتأخر شيئاً .

وكان أحد الصحابه رضي الله عنهم (مفهوم الرواية) يصلي ناداه النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يأت ، ثم ناداه ولم يأت وحضر بعد قليل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لماذا تأخرت ؟ قال : كنت أصلي ، فقال : أما قرأت ، { ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم } (الأنفال ، آية ٢٤) .

سبحان الله ! وإنما الأمر إذا نادى النبي صلى الله عليه وسلم أحداً يصلي فعليه أن يتوجه إلى قبلة المحبة صارفاً وجهه عن القبلة ، وإنما هو يقوم بعمل النبي صلى الله عليه وسلم ممتثلاً لأمره والمصلي في الصلاة وإذا ينتهي من العمل يكمل ما كان باقياً من الصلاة ولا يستأنفها .

فلاحظتم مكانة المحبوبية !

ووقع واقع رواه أنس رضي الله عنه ، ذات يوم كان الصحابة يصلون إقتداءً بأبي بكر الصديق رضي الله عنه في

المسجد النبوي الشريف أيام مرض النبي صلى الله عليه وسلم إذ رفع ستر حجرة عائشة المباركة وتبسم حجرة عائشة حينما رأى الصحابة ، وبدأوا ينظرون فرحة وسروراً إلى وجه النبي صلى الله عليه وسلم وهم في الصلاة وكادوا أن يقطعوا صلاتهم ، فأشار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بيده لإكمال الصلاة ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر .

(البخاري ، ج ٢ ص٧٢٦ ، لاهور) .

وهذا الحديث في صحيح البخاري ، وكان راوي الحديث في الصلاة ، وقد يعلم بألفاظ الحديث أنه كان يعاين هذا المنظر عن كثب ويرويه .

فلاحظوا ألفاظ الحديث :

١- قد كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة .

٢- ثم تبسم يضحك .

٣- فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف .

٤- وهمَّ المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم .

٥- فأشار إليهم بيده رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٦- ثم دخل الحجرة وأرخى الستر .

ولا يبين الراوي هذه الأشياء إلا بعد ما يراها ويبدو بألفاظ الحديث أن أنسا راوي الحديث رضي الله تعالى عنه كان من ضمن الصحابة الكرام في الصلاة .

وكانت الحجرة الشريفة على اليسار من القبلة والمحراب الشريف ، ورأى الصحابة رضي الله تعالى عنهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مولين وجوههم إلى اليسار ولكن لم تبطل صلاة أحد منهم ، وأتموا صلاتهم بإشارة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والنكتة التي يجدر ذكرها أن تولية الوجوه إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في داخل الصلاة لا يأتي به أي خلل ، فكيف يأتي خلل في الدعاء بصرف الوجه إليك ؟

مع أن تولية الوجه إلى القبلة وقت الدعاء ليس ضرورياً ، ولو كان ضرورياً لما دعا النبي صلى الله عليه وسلم خلال خطبة الجمعة لنزول الغيث جانب مخالف القبلة . (صحيح البخاري ، ج٣ ، ص٤٩٩ ، طبعة لاهور) .

ولا يفهم هذه الأشياء إلا بالعقل النوري الذي يأتي لمحبة النبي

صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لمن يحبه : من لم يزر قبري فقد جفاني . (شفاء السقام في زيارة خير الأنام ، للإمام تقي الدين السبكي ، ص٣٨)

الله أكبر ! بأي حب يدعو النبي صلى الله عليه وسلم أحبائه وإنما المحبة والأدب يقتضيان أن من يتواجد في مواجهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يكون متوجهاً إليه سواءً كان قائماً أو قاعداً أو مكتوف اليدين أو مشغولا بالدعاء .

إنه قد دعانا فحضرنا ، إذا نصرف وجوهنا عنه فأين نذهب ؟

قد اتفق جمهور العلماء للمذاهب الأربعة على أن الزائر إذا حضر لمواجهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ودعا متوجها إليه .

وقد أورد الإمام تقي الدين السبكي أقوال علماء المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية بالتفصيل ، الذين يقومون بالتوجه إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقت الدعاء . (شفاء السقام بزيارة خير الأنام ، للإمام تقي الدين السبكي ص١٦٣)

وكان عليه عمل السلف الصالح منذ قرون وما زال الناس

حتى اليوم يدعون في جنة البقيع وبمشهد سيد الشهداء رضي الله عنهم يرفعون أيديهم إلى القبور وهناك لا يمنع أحد من ذلك .

فإذا لا يمنعون في البقيع ومشاهد الشهداء فالأولى أن لا يمنعوا منه عند قبر النبي صلى الله تعالى وسلم .

نعم ! من الواجب أن يبتعد الزائر من الشبكة بقدر أربعة أذرع ، ولا يمس الشبكة بيده ، فإن أيدي أمثالنا لا تليق باللمس ، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم قد دعا المذنبين والعصاة كأمثالنا إلى بابه ، وأسعدنا بشرف زيارته ، فإنه ليس بأمر هين ولكنه خطب عظيم ولكن أمر أحبائه صلى الله تعالى عليه وسلم شيء آخر .

فقد جاء في رواية أن سيدنا بلالا رضي الله عنه رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المنام بالشام يقول له : ما هذه الجفوة يا بلال ؟ أما أن لك أن تزورني يا بلال ؟ (رواه ابن عساكر) .

ولم يكد أن أتم منامه حتى استيقظ وبدأ رحلته لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولعله كان أول سفر لزيارة النبي

صلى الله عليه وسلم قام به صحابي ، فركب راحلته وقصد المدينة ، فلما بلغ المدينة أتى قبرالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه . (ابن عساكر) والمنظر الذي رواه الراوي في الحديث المذكور منظر وجداني مؤثر ، يململ القلوب و تسكب العيون دموعا .

نعم ! لا يعرف ذلك إلا من يخطر بباله ذلك .

O

إن زوار قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذين يريدون أن يرفعوا أيديهم للدعاء فلعل لدى المانعين عنهم عدة احتمالات ، الأول : اعتقادهم بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حي ، والثاني : توسلهم بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الدعاء ، والثالث : اعتقادهم بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (معاذ الله) معبود وإله .

(١) ومما لاريب فيه أن حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عالية جدا ، فإن القرآن يذكر حياة لكل شيء ، { وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفهمون تسبيحهم } (سورة الإسراء ، آية ٤٤)

والحصا أيضا تنطق ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أسمع أبا جهل نطقها بكرمه .

وفي القرآن الكريم قد جاء ذكر الآخرة كثيرا مع ذكر الدنيا ، { أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة } (البقرة آية٨٦) وكما يقول القرآن : { لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة } (يونس ، آية ٦٤)

ويقول عن الحياة الدنيا والآخرة : { وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون } (العنكبوت ، آية ٦٤)

فإن الحياة والموت في الدنيا وسائل ابتلاء ، { الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا } (الملك ، آية ٢) يعني أنما أصل الحياة الحياة التي تأتي بعد حياة الإبتلاء والتي لا ندركها ، { ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون } (البقرة ، آية ١٥٤)

هؤلاء الشهداء الذين يشهد القرآن بحياتهم إذا ماتوا فزوجاتهم مسموح نكاحهن ، ولكن نكاح أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد رحلته إلى الرفيق الأعلى محرم ، { وما كان

لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما } (الأحزاب ، آية ٥٣)

فقد تبين بهذه الآية الكريمة أن حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أقوى وأعلى من حياة الشهداء . ولست أهلا لأبين عظمة وشأن حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم !

فقد جاء في القرآن العظيم : { فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها } (الروم ، آية ٥٠)

ويقول القرآن : { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين } (الأنبياء ، آية ١٠٧)

فقد أحيى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كافة العرب ، ثم العرب الذين نالوا الحياة أحيوا الدنيا كلها . فتفكروا في أن الحياة علامة الرحمة ، فماذا يكون شأن الرحمة ؟

(٢) والإحتمال الثاني أن الزوار يتوسلون بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإن هذا الأدب قد علمنا الله ولم يعلمنا إنسان . ولما خلق الله آدم عليه السلام أمر الملائكة لأن يسجدوا له وأرسله إلى الجنة بأمر ، ولكن الزلة منه كانت مقدورا فأتت ، ثم أنزل إلى الأرض ، فما زال يبكي إلى

قرون ، وأخيرا { فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم } (البقرة ، آية ٣٧)

ولا ريب أن الله هو مالك الكل ، وكان له أن يتوب عليه عندما شاء ولم يكن محتاجا إلى تعليم الكلمات وطريقة التوبة إليه ، ولكن لا ، فإنه علم الكلمات وكشف محبوبية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أول يوم من الخلق ، وما هي الكلمات التي علمت ؟ فاسمعوها ، " يارب ! أسألك بحق محمد لما غفرت لي" . (فتاوى ابن تيمية ، المجلد ٧٢ ص ١٥٠) .

فقد عمل الأنبياء وأممهم بهذه سنة آدم عليه السلام فقد جاء ذكره في القرآن الحكيم : { وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين } (البقرة ، آية ٨٩)

وقد يوجد ذكر الوسيلة لصراط الصالحين في سورة الفاتحة ولا يمكن الصراط المستقيم بغير الوسيلة .

{ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم } (الفاتحة ، آية ٥، ٦)

والله يعلم ما هو الصراط المستقيم ، وإذا نسأله الصراط المستقيم يقدر على أن يسيرنا عليه بدون واسطة المنعم عليهم ولم يكن الإحتياج لشرح الصراط المستقيم ، وقد شرح الصراط وفصل لكي لا يكون السائل مستغنيا عن أحباء الله ومواليا دبره عنهم ، وإنما صراطهم هو الصراط المستقيم وإنما قاله الله صراطه ، { وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل } (الأنعام ، آية ١٥٣)

وإنما الصحابة عملوا بسنة سيدنا آدم عليه السلام ، وقد أمر المسلمون كلهم بذلك : { ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفر الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما } (النساء ، آية ٦٤)

وقد جاء في رواية عتبى أن أعرابيا أتى قبرالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والها متشوقا دامعا وقال :(يا خير الرسل ! إن الله أنزل عليك كتابا صادقا فيه:{ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما } ، وإني جئتك مستغفرا ربك من ذنوبي مستشفعا فيها بك) (المغني ، ص ٦٠٠ ، ورواه ابن عساكر أيضا) .

وفي رواية :(قد جئتك مستغفرا من ذنبي مستشفعا بك إلى ربي ثم بكى) (نفس المصدر) .

فرأى الراوي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المنام يقول له : (ياعتبى الحق الأعرابي فبشره أن الله تعالى قد غفر له) (المغني والشرح الكبير على متن المقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل ، ص ٦٠٠ ، ٦٠١ ، طبعة بيروت) .

ولا ريب أن السائل يرجع إلى الله على كل حال ، كما يقول : { فإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان } (البقرة ، آية ١٨٦) .

وإنما يؤدي حق العبودية بأن يتجه العبد إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويدعو الله . وإنما يحب الله أن يكون العبد على هذه الصفة ، فإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مولى وأولى بأحبائه كما يقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي من المؤمنين ، فترك دينا فعلي قضائه ومن ترك مالا فهو لورثته) (مشكاة المصابيح ، باب الإفلاس والإنظار ، ص ٢٥٢) .

الله أكبر ! فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو الكريم الذي

إذا كان الميت مديونا يقضي دينه وإذا كان قد ترك مالا فالمال لورثته .

وإنما هو الغني والغني ، نعم ! هو حبيب الغني صلى الله تعالى عليه وآله وأزواجه وأصحابه وسلم .

فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم مكانته عالية جدا ويبدو بمطالعة القرآن الكريم أنه يجوز التوسل أيضا بالمقربين إلى الله ، يقول ربنا : { أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه } (بني اسرائيل آية ٥٧) . فتبين بهذه الآية أن الدعاء بتوسل المقربين عين مشية الله عزوجل أيهم أقرب من النبي الأنور صلى الله تعالى عليه وسلم ؟

O

(٣) والإحتمال الثالث : أن الذي يرفع يديه للدعاء إليه يعتقده مسجودا أو معبودا ، فسوء الظن هذا بهذا الرافع اليدين للدعاء إليه ظن سيء عظيم . وقد يتوجه في السجود إلى بيت الله ومحراب المسجد ولكن لا يعتقده أحد إلها ومسجودا ، فالمفروض أن لا يظن بالسوء عن هذا الداعي . ويسن الدعاء

عند رؤية الهلال برفع اليدين إليه .

والمتخلفون عن صلاة الجنازة يجوز لهم الدعاء متوجهين إلى الجنازة ، وقد دعا الصحابة رضي الله تعالى عنهم بهذه الصفة .

ولكن لا يظن أحد أن الداعي يعتقد الهلال إلها ، والطعام قاضي الحاجات والجنازة حلال المشكلات (معاذ الله ثم معاذ الله) .

ولا يعلم حال القلب إلا الله ، وإنما هو عالم الغيب ، فنحن لا ندري ما في قلب أحد ، ولا نحكم على أحوال القلوب ، فإننا قد نهينا عن سوء الظن ، يقول ربنا : { يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم } (الحجرات ، آية ١٢)

والذين يحضرون في مواجهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويرفعون أيديهم للدعاء وإساءة الظن فيهم بأنهم يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حاجاتهم يعتقدونه مسجودا

ومعبودا ، فهذا الظن إثم عظيم ، ثم المراقبون الذين يتجسسون فردا فردا ، هذا الشيء أيضا ممنوع في الآية المذكورة .

فالشيخ محمد بن عبد الوهاب أيضا لا يسمح بسوء الظن المذكور ، فإنه يتكلم عن الزائر المخلص الذي يجعل وجهه إلى وجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويدعو الله بوسيلته صلى الله تعالى عليه وسلم ، يقول ابن عبد الوهاب : فأين هذا ممن يدعو الله مخلصا له الدين لا يدعو مع الله أحدا ولكن يقول في دعائه أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين أو بقصد قبر معروف أو غيره يدعو عنده لكن لا يدعو إلا الله مخلصا له الدين ، فأين هذا مما نحن فيه .

(فتاوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ج٣ ص ٦٨)

فالقادمون حاضرون لسيدهم ومولاهم صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذروهم على حالهم ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم عالم بحالهم ، اسمعوا ما يقول صلى الله تعالى عليه وسلم : هل ترون قبلتي ههنا فوالله ما يخفى عليَّ خشوعكم

ولا ركوعكم ، إني لأراكم من وراء ظهري .
(رواه البخاري ، ج١ ص٥٩)

فعلاقة الخشوع بالباطن وعلاقة الركوع بالظاهر ، فالحديث الشريف يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعلم أقوالنا الظاهرة والباطنة ، فالحضور للنبي الجليل العالم صلى الله تعالى عليه وسلم وصرف الوجه عنه جراءة عظيمة ، وما دام صلى الله تعالى عليه وسلم يرانا ، فماذا يجب علينا أن نفعل ؟ فالمفروض علينا أن نتوجه إليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالأدب يقتضي ذلك ، والمحبة تقتضيه .

يقول الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه : قدم أيوب السختياني وأنا بالمدينة ، فقلت : لأنظرن ما يصنع ، فجعل ظهره مما يلي القبلة ووجهه مما يلي وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبكى غير مستباك . (رسول الله في القرآن الكريم ، لحسن الكامل الملطاوي ، ص ٥٠٠ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م)

وقد علم الإمام أحمد بن حنبل طريقة الحضور للمواجهة

الشريفة ، فيقول : يقف وظهره للقبلة ووجهه إلى الحجرة . (نفس المصدر) .

وقد سجل في المغني : ثم تأتي القبر فتول ظهرك القبلة وتستقبل وسطه وتقول الآخرة . (المغني ، ص٦٠ ، طبعة بيروت سنة ١٩٨٢م)

وقد استفسر الخليفة أبو جعفر منصور (م ١٥٨ هـ) الإمام مالكا رضي الله تعالى عنه : يا أبا عبد الله ! أستقبل القبلة وأدعو أم استقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ (الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ، ص ٣٣ ، طبعة القاهرة ١٣٦٩ هـ)

فالجواب الذي صدر من الإمام مالك رضي الله تعالى عنه جواب يبهج الروح وجدير بأن يستمع ويقرأ في القلب ، يجيب الإمام مالك : لم تصرف وجهك عنه ؟ وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة ، بل استقبله واستشفع به ، فيشفعه الله ، الآية قال الله تعالى : { ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك } (الشفاء ص ٣٣)

ونقل الإمام النووي قول الإمام مالك رضي الله تعالى عنه :

إذا أراد الرجل أن يأتي قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيستدبر القبلة ويستقبل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويصلي عليه ويدعو . (شفاء السقام ، ص ١٦٩ ، أخذا من رؤوس المسائل الإمام النووي)

وكذا يكتب ابن تيمية أن يحضر الزائر للمواجهة الشريفة ويسلم ويدعو ولا يمس القبر الأنور . (اقتضاء الصراط المستقيم ، ص ٣٩٦)

وهذه التعليمات وجهها الشيخ أحمد رضا البريلوي لزائر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

١- إياك وإياك ولمس أو تقبيل الشبكة ، فإنه يضاد الأدب بل ابتعد عنها بقدر أربعة أذرع على الأقل .

٢- ولا تستدبر القبر الشريف .

٣- ولا تطف بالقبر الأقدس ولا تسجد له ولا تركع له .

(أنوار البشارة في مسائل الحج والزيارة ، ص٧٠ - ٧٤ ، طبعة لاهور سنة ١٣٢٩ هـ)

ومن آداب هذا الباب العظيم أن لا يستدبر القبر الأنور وقت الدعاء ولا يمس الشبكة مغلوبا بالعواطف ، وهل تليق هذه

اليد باللمس ؟

نعم ! باب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم باب الأدب ، وإنما الإيمان بتعظيمه وتوقيره ، فإن الصحابة رضي الله تعالى عنهم لم يستدبروه صلى الله تعالى عليه وسلم قط ، ودائما كان اتجاههم إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حتى في الصلوات ، فإنهم دائما صلوا خلفه ، وإنما مكانته صلى الله تعالى عليه وسلم إذا ينادي أحدا يصلي متجها إلى القبلة يفرض عليه أن يحضر لندائه مستدبرا القبلة ، والقرآن يشهد بذلك وهل يرضى الله ورسوله بأن يقوم أحبائه يستدبرون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ كلا ! فإن ذلك يؤذي الله ورسوله وإن هذا ليس بهين بل هو عظيم ، وبابه وشأنه عال جدا فإن بدأ أحد يصلي في باب ملك دنيوي يستدبره يعتبر هذا مخالفا للآداب الملكية ، ويبعد هذا المصلي عن بابه ، ولا يسمحن بأن يستمر في صلاته يستدبر الملك .

وإنما ذلك في أبواب ملوك الدنيا فماذا يكون الشأن في الباب الذي يأمر الله عباده بالتوجه إليه ؟

ومنذ قرون كان عمل الأسلاف الكرام بهذا ، والأئمة الأربعة

أيضا متفقون على أن الداعي إذا يرفع يديه في المواجهة الشريفة وقت الدعاء فعليه أن يكون وجهه إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد أمر الله سبحانه المسلمين بأن يكونوا مع الصادقين ، { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين } (التوبة ، آية ١١٩)

وسعادتنا أن نتبع القرآن والسنة ونسير على صراط الصالحين .

نعم ! الحاضرون الذين يتواجدون في باب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليل ونهار عليهم أن يشكروا الله على ما أنعم عليهم من قرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والذي أخذ الله من النبيين ميثاق طاعته ، ثم رفع كل نبي في أمته ذكره ، وزين عيسى عليه السلام آخر محفل وأعلن في حفل حافل ، { ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد } (الصف ، آية ٦)

نعم ! لقد جاء النبي الذي دام انتظاره منذ قرون ، فالذين يسكنون في جواره يجب عليهم أن يشكروا الله على هذا .

والقادمون الذين قدموا إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مرة واحدة بعد آلاف من الأماني والآمال تضطرم في قلوبهم نار المحبة :

هل الحب إلا زفرة بعد زفرة

وحر على الأحشاء ليس له برد

فذروهم أن يعملوا بسنة سيدنا بلال الحبشي رضي الله تعالى عنه ، وذروهم أن يعملوا بسنة الأعرابي العاشق الولهان المذكور .

وتفكروا فيما أقام التلفزيون ودوش القيامة في بيوتنا ، والناس مشغولون بمشاهدة المحرمات والمنكرات ، ففي هذا الجو هذه الرقابات في المواجهة الشريفة تفضي بالإنسان إلى العجب والدهشة .

وقد صرفت المدنية الجديدة وجوهنا إلى الفحشاء والمنكر ، وإنما نحن نصرف وجوهنا عن المواجهة الشريفة ، والحق أن من توجه إليه صار لله ومن صرف وجهه عن هذا الباب خاب وخسر ولم يبق له شيء وراح ضحية المحبة لغيرالله .

أبقانا الله بذيل حبيبه صلى الله تعالى عليه وسلم وتوفانا

علىمحبته وحشرنا تحت لوائه يوم النشور . آمين ، اللهم آمين .

يا أكرم الثقلين يا كنز الورى

جد لي بجودك وارضني برضاك

ولا ريب ، { والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين} (التوبة ، آية ٦٢)

٢١ من ذي الحجة سنة ١٤١٥هـ

٢١ من مايو ١٩٩٥ م

محمد مسعود أحمد (عفي عنه)

٢/ ١٧ – سي – بي – أي – اتش – سوسائيتي

كراتشي (سندھ)

جمهورية باكستان الإسلامية

تم التعريب في ١٢ من ذي الحجة سنة ١٤١٧ هـ